

أخناتون وبلاد الشام السلطة والمعارضة

محمود عبد الحميد أحمد

بعد أخناتون شخصية فريدة في تاريخ البشرية . فانك ما ان تسمع اسم اخناتون الا ويتبادر الى ذهنك ذكرى فيلسوف عظيم كان له السبق بالدعوة الى الوحدة في عصور موغلة في القدم . وأنتك لتعجب حقاً لهذه الدعوة المبكرة ، وتكون بين مصدق ومعجب بهذه الشخصية الفذة . ولم يقف أخناتون عند الدعوة الى وحدانية ربه ، بل أسبغ عليه من الصفات ما يجعلنا ندعش لهذا الابداع في صفات الهه كلها رحمة ومحبة وخير للبشر عامة ، في وقت كانت رحمة الهه قوم او منطقة لا تنزل الا عليهم ، وكان أي الهه يسوق الآخرين أسرى ويقتلهم وينكل بهم أمام من يعبدونه .

ان شخصية أخناتون — كما سنرى — متعددة الجوانب ، فهو أول من حاول ان يحدد في عالم الدين والفكر والفن والعلاقات بين الشعوب . وقد كان اخناتون مخلصاً لمبادئه ، صادقاً في كل ما دعى اليه، على الرغم من قوة التقاليد وجبروتها، واستخدامها من قبل أعدائه (كهنة آمون) سلاحاً ضده . وهكذا فاني أستطيع القول بناء على كل ما جاء به اخناتون ، ان هذا المفكر العبقري أول ثائر عالمي . لم ترهبه قوة الكهنة الاقتصادية ، ولا تغفل نفوذهم الديني والثقافي في نفوس المصريين . ولا قوة التقاليد التي كانت راسخة رسوخ الجبال في أذهان المصريين القدماء . بل مضى في طريق دعوته غير هباب ، وسان حاله يقول : لن أترك هذا الدين . وفي السطور التالية سوف أحاول كتابة قصة أخناتون من أولها الى آخرها .

مصر قبل اخناتون :

نتج عن تحرر مصر من حكم الهكسوس في مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد (١٥٧٥ ق.م) نتائج عظيمة . من أهم هذه النتائج ، تحقيق الوحدة المصرية للمرة الثالثة . بعد أن كان حكام الاقاليم يحكمون اقاليمهم شبه مستقلين عن سلطة

دراسات تاريخية ، العددان ٥١ / ٥٢ ، كانون الثاني — نيسان ١٩٩٥

الهكسوس ، حيث قبل الهكسوس بهذا الوضع ، طالما كان حاكم الاقليم يعترف بسيادتهم ويدفع لهم الجزية . وعليّ أن اشير هنا الى قانون عام في تاريخ الشعوب ، يتلخص في أنه ما من شعب حقق وحدته الا وامتلك قوة كبيرة - بالقياس لماضيه القريب - تجعله يبحث عن مكان له تحت الشمس ، وهذا ما حصل للشعب المصري بعد تخلصه من حكم الهكسوس كما سنرى . والنتيجة الثانية هي تكوين الجيش المصري فقد كان الجيش المصري قبل الان يجمع من الاقاليم : حين تقتضي الاحوال ، كما فعل الملك بيبى الاول في الدولة القديمة . ولكننا الان ، نرى الوضع قد تغير كثيرا بعد حرب الهكسوس . فالاسطول الحربي المصري أصبح مؤسسة قائمة بذاتها ، يآتمر أفرادها بأمر الفرعون . وقد بدأ هذا واضحا خلال حرب الهكسوس (١) . وأصبح الجيش البري تحت امرة الفرعون والضباط . والمرء يلمس هذا واضحا كل الوضوح في حروب ملوك الاسرة الثامنة عشر (٧) . أما النتيجة الثالثة ، فهي وجود ادارة مركزية منظمة ، ذات خبرة عظيمة ، استطاعت هذه الادارة ، أن ترسل الجيوش المصرية الى الفرات في أقصى الشمال ، والى قلب افريقية . كما استطاعت هذه الادارة ، أن تشرف على شؤون البلاد الدينية والادارية والاقتصادية والاجتماعية . فأرسلت البعثات التعدينية والتجارية الى بلاد البونت والى سيناء ، والى بلاد الشام . كما نظمت الزراعة وأشرفت عليها .

سعت الامة المصرية وقد تحررت من الهكسوس ، وربت البيت المصري من الداخل الى ايجاد استراتيجية تستطيع من خلالها التعامل مع شعوب المنطقة في مستقبل الايام . وبرز هنا رأيان ، وكل من الرايين يرى أن على مصر أن تغير من استراتيجيتها السابقة تجاه الشعوب المحيطة بها . فالمناعة الالهية الطبيعية ، حيث لا تسبغ الالهة حمايتها الا على مصر ، قد فشلت بعد غزو الهكسوس . وقال أصحاب الرأي الاول والاقدم - الملكة حتشبوت وأنصارها - أن عزة مصر وتفوقها لا يتحققان الا من خلال التفوق الثقافي والاقتصادي على شعوب المنطقة . وقال أصحاب الرأي الثاني - الملك تحوتمس الثالث وأنصاره - أن عزة مصر وتفوقها لا يتحققان الا من خلال قيادة الجيوش العظيمة المدربة ، والانتصار في المعارك الحربية . وبعد صراع قصير بين المبدئين ، نجح أصحاب الرأي الثاني ، واستطاع تحوتمس وأنصاره تكوين امبراطورية تمتد من الفرات وجبال طوروس في سورية الى حدود السودان . وحمل الفراعنة الى مصر الكثير من الاسلاب والفنائم خلال حروبهم في بلاد الشام أو النوبة . كما حملت الشعوب التي أصبحت تحت السيطرة المصرية جزاها السنوية الى قصر الفرعون . ومن المؤكد أن عظمة مصر في هذا المجال وصلت الذروة في عهد الملك امنحوتب الثالث حوالي ١٤٠٥ ق.م . فالامبراطوريات الكبيرة في منطقة الشرق القديم من حثية وميتانية وكاشية وآشورية ، آمنت بأن مصر قوة كبيرة لا يمكن قهرها ، تمتلك جيشا عظيما ،

وتسيطر على بلاد الشام التي تعد من أعظم المناطق ، بسبب مرور الطرق التجارية العالمية خلالها عصرئذ . ولذلك سعت اليها تحمل الهدايا لتكسب صداقتها . وهنا التفت امنحوتب الثالث الى متع الدنيا ، من شراب ، وبناء ، وصيد ، ونساء . وقد نتج عن وجود ملك غير محارب على رأس السلطة المصرية ، غير هيباب بأحوال امبراطوريته ، ان تحركت الاطماع للقضاء على الامبراطورية المصرية في بلاد الشام . وكان من أشد الممالك عداوة لمصر ، مملكة خيتا في آسيا الصغرى ، حيث صارت تغير على الامارات السورية الواحدة تلو الاخرى وتنال منها ، والمملكة العمورية التي قامت في وسط سورية بزعامة عبدي عشرتا وابنه عزيزو ، وأخذت تتوسع على حساب الممالك السورية الموالية لمصر ، الى ان وصلت الساحل السوري على البحر الابيض المتوسط . وقد كتب أمراء الامارات السورية الموالية لمصر الى الفرعون امنحوتب (٣) أمثال جبيل ، وقطنا وغيرهما عن الغارات التي قام بها الحثيون ، وعن توسع المملكة العمورية الحليف غير المعلن مع خيتا . ولكن امنحوتب الثالث لم يقم بأي عمل حاسم ، يضع النقاط على الحروف (٤) .

توفي امنحوتب الثالث حوالي ١٣٦٧ ق.م ، وخلف ابنه امنحوتب الرابع على عرش المملكة المصرية القديمة . وفي هذا الوقت ، كان وجود الامبراطورية في بلاد الشام ، يتعرض لرياح حثية قوية ، تريد أن تجتثه من جذوره وكانت أحوال مصر وامبراطوريته في بلاد الشام ، تتطلب قائدا محاربا مثل تحوتمس الثالث (٥) . ولكن الواقع جاء مخالفا تماما . فالحاكم الجديد فيلسوف ، خيالي ، حالم ، لم يعط جل اهتمامه لمجد مصر في بلاد الشام والشرق القديم . بل نراه يولي اهتمامه فكرا خلاقا ، لا عهد لمصر والشرق القديم به .

استمر امنحوتب الرابع خلال الاربع سنوات الاولى من حكمه في تقديس كل الالهة المصرية ، وتقديم العبادات والقربان لها . ولم يلحظ الباحثون أي تغير في أمور الدين بخاصة . ولكن يبدو أن النار كانت تحت الرماد - كما سيتبين لنا فيما بعد - اذ أن صراعا مستترا كان يدور بين فراغتة مصر وكهنة الاله آمون - أكبر آلهة مصر وقتئذ - منذ عهد جده الفرعون تحوتمس الرابع (جد امنحوتب الرابع) ، وكان محور هذا الصراع السلطة في مصر القديمة . وقد تفجر هذا الصراع في السنة الرابعة من حكم امنحوتب الرابع . ويستطيع الباحث أن يتلمس مظاهره الدينية ، والادارية ، والاقتصادية ، والفكرية بشكل واضح وجلي (٦) .

المظاهر الدينية :

قام امنحوتب الرابع بعدة اجراءات دينية ، الهدف الاساسي منها القضاء على ديانة آمون ونفوذ كهنة آمون . وفيما يلي يعرض الباحث لهذه الاجراءات :

اولا - تغيير اسمه : غير امنحوتب اسمه الذي يعني آمون راض أو آمون في سلام الى اخناتون بمعنى المفيد لآتون - اسم الهه الجديد - أو « آتون راض » (٧) ولهذا التغيير اهمية كبيرة ، تكمن هذه الاهمية في أن الملك تخلى عن ارتباط اسمه باسم الاله المبجل في كل مصر القديمة ، والذي ساعد الفراعنة على بناء الامبراطورية المصرية في الشام والنوبة . بل وأكثر من ذلك ، فقد كانت ديانة آمون هي الديانة الرسمية للدولة في عصر الاسرة الثامنة عشرة ، لان اسم هذا الاله ارتبط بأسماء معظم ملوك هذه الاسرة ، ولانه كان اله طيبة العاصمة الامبراطورية . وهكذا فان التخلي عن اسم آمون ، يعني التخلي عن عبادة هذا الاله ، وعن معابده ، وطقوسه ، وكهنوته ، وامتيازاته . وبالمقابل فان ارتباط اسم الفرعون باسم اله جديد ، يعني الاعلان عن دين الفرعون الرسمي . ويعني الاعلان عن الاله الرسمي للدولة ويعني أن الطقوس سوف توجه اليه وان المعابد سوف تقام له .

ثانيا : شنّ اخناتون حملة شعواء على اسم آمون . قامر ان يحى هذا الاسم أينما وجد ، فمحاه من اسمه ، ومحاه من اسم ابيه أمنحوتب الثالث . كما محاه من كل آثار الامبراطورية التي وجدت في طيبة . ومن المؤكد ان اخناتون بمحوه هذا ، أراد ان يمحو ديانة آمون من الوجود ومن اذهان الشعب المصري . فمحو الاسم في مفهوم الشرق القديم بشكل عام، يعني حرمان صاحبه من السعادة والخلود ، ويعني القضاء على قوته وتأثيره (٨) .

ثالثا : امر اخناتون الا يشار الى الالهة بصيغة الجمع ، فكانت تمحى الكلمة التي تشير الى الالهة بهذه الصيغة .

رابعا : اتخذ الملك اخناتون لنفسه لقب الكاهن الاعظم لآتون ، حيث سمي نفسه « الناظر الاعظم » M 33 WT . والناظر الاعظم هو لقب الكاهن الاعظم في مذهب هيلوبولس (عين شمس) الشمس . ويعني الكاهن العظيم الذي يراقب الاجرام السماوية ، لتقام الطقوس طبقا لحرركاتها .

خامسا : لقد بلغ اخناتون ذروة الاجراءات الدينية عندما نادى بعبادة اله واحد ، هو الاله آتون . وقد وصفته نصوص العمارة ، بأنه « الاله الواحد ، الذي لا مثيل

له «٩» . وهو مصدر الحياة في هذا الوجود سواء للانسان أم للحيوان والنبات ، فأشعته التي رسمت على شكل أيدي منبعثة من قرص الشمس ، هي التي تمنح الحياة والخير والبركة للوجود ، حيث نرى هذه الاشعة في بعض الرسوم وهي تقدم علامة الحياة عنخ fcnh (٨٠) .

كان آتون قرص الشمس المستدير ، وهو اله قديم معروف لدى المصريين منذ أيام الدولة المصرية القديمة ، حيث ورد اسمه في نصوص الاهرام . كما عثر بالقرب من تمثال « ابو الهول » بالجيزة على لوحة من عهد الملك تحوتمس الرابع (جد اخناتون) ، مرسوم عليها قرص الشمس ، وهو يعطي الحياة . كما أصبح عليه الامر في أيام اخناتون (١١) .

المظاهر الادارية :

كانت طائفة الكهنة في مصر القديمة تتمتع بميزات ادارية خاصة ، جعلت منها طبقة في المجتمع لا تدانيها طبقة . من هذه الميزات ، الثقافة العالية ، اذ كانت مهنة الكتابة سائدة بينهم ، ويكفى ان نذكر ان خطا رئيسا في الكتابة المصرية سمي باسمهم « الخط الهيراطيقي - الخط الكهنوتي » ، لنذكر كم كان حظهم من الكتابة بخاسة ومن الثقافة بعامة عظيما . وتمتعت طبقة الكهنة بميزة التنظيم ، حيث كانت للكهنة مراتب أعلاها الكاهن الأكبر في معبد الاله الذي يعبد (١٢) . وكذلك تمتعت طبقة الكهنة بميزة الادارة ، وقد اكتسب الكهنة خبرتهم الادارية من واقعهم ، حيث امتلك المعبد آلاف العبيد وقطعان الماشية ، والحقول ، والذهب وغير ذلك . ولا بد أن مصروفات عديدة ، كانت تلقى على عاتق المعبد . ولهذا برع الكهنة في حساب الصادر والوارد ، والحفظ (١٣) . وعندما قام اخناتون بالدعوة الى عبادة الاله أتن ، تبعه دون شك بعض رجال البلاط . وبعض عامة الناس . أما كهنة أمون ، فقد أخذوا يحقدون على اخناتون ودينه . ويخلقون المصاعب لادارته . بسبب الاذى الذي أصاب مصالحهم . فكان على الملك والحالة هذه ، ان يحدث تغييرا في ادارة الدولة . فأبعد عن الادارة انصار كهنة الاله أمون ، وجعل بطانته من الذين نصره وأيدوه وامنوا بدينه الجديد . ولا يشك أي باحث ان هذا الامر قد اربك الادارة المصرية الاخناتونية ، التي أصبحت تديرها فئة من الناس حديثة العهد بفن الحكم والاضطلاع بالمسؤوليات واتخاذ القرارات ، وقد عمق هذا الاجراء الملكي الهوة بين السلطة التي رأسها اخناتون . وبين المعارضة التي كان على رأسها كهنة أمون .

نقل العاصمة :

ومن الاجراءات الادارية التي قام بها اخناتون للحد من سلطة الكهنة ، نقل العاصمة من طيبة الى موقع العمارة الحالي ، في مصر الوسطى بالقرب من اسيوط الحالية ، وقد اطلق على عاصمته الجديدة « آخت آتن » ، أي أفق آتن . وذلك ليصرف انظار المصريين عن آمون وكهنته ، وليوجهها الى الهه آتون والى فكره وعاصمته (١٤) .

المظاهر الاقتصادية :

يستطيع الباحث من خلال دراسة المصالح الاقتصادية لطرفي الصراع (الملك اخناتون - السلطة وكهنة آمون - المعارضة -) ، تلمس أهم أسباب الصراع الذي ساد كل عهد اخناتون (١٣٦٧ - ١٣٤٧ ق.م) .

منذ مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد خاضت مصر حروبا عديدة في الداخل والخارج . ففي الداخل حارب المصريون الهكسوس . وغنموا منهم الكثير (١٥) . وفي خارج مصر ، قام ملوك مصر من بداية حكم الاسرة الثامنة عشرة - أي بعد طرد الهكسوس - بالحرب في بلاد الشام والنوبة . ومن خلال الآثار والنصوص المصرية نستنتج ، أن المصريين انتصروا في كل حروبهم ، وحصلوا على مكاسب مادية كبيرة ، حيث الفنائم والاسلاب وجزى الشعوب التي حملتها (وهي صاغرة) الى مصر ، نذكر من هذه الحروب على سبيل المثال ، حروب احمس الاول (١٥٧٥ - ١٥٢٥ ق.م) مؤسس الاسرة الثامنة عشرة في فلسطين ، وحروب تحوتمس الاول (١٥٢٨ - ١٥١٠ ق.م) في سورية ، حيث وصل الى نهر الفرات (١٦) ، أما تحوتمس الثالث (١٤٦٨ - ١٤٤٧ ق.م) فقد قضى عمره يحارب في بلاد الشام ، اذ شن سبع عشرة حملة عسكرية عليها ، وبذلك استطاع ان يكون امبراطورية تمتد من الفرات الى حدود السودان . كما حارب في بلاد اشنام كل من امنحوتب الثاني بن تحوتمس الثالث ، وتحوتمس الرابع بن امنحوتب الثاني (١٧) .

نتج عن حروب المصريين الآتفة الذكر ثلاث نتائج هامة :

اولا : ارتفاع شأن الاله آمون : ارتفع شأن الاله آمون عند المصريين كثيرا ، وذلك لانه كان اله العاصمة التي انطلقت منها الجيوش المصرية ، وحقق انتصارات العظيمة ، ليس بسبب قوتها ، وحسن تنظيمها ، وتدريبها ، وامتلاكها لافضل اسلحة العصر ، بل لان آمون - حسب العقيدة المصرية الدينية - اراد ذلك .

ثانياً غنى كهنة معبد الاله آمون :

كان على الملك المصري - وقد نصره الاله آمون حسب العقيدة المصرية القديمة- أن يقابل احسان الاله باحسان ، وذلك بأن يخصص جزءاً من الفنائم والاسلاب والجزى وأرباح الحملات التجارية والتعدينية الى معبد الاله آمون ، يضاف الى هذا الانعامات الملكية والنذور وتقدمات عباد آمون. ولذلك أصبح كهنة آمون من أغنى الاغنياء في مصر.

ثالثاً تدخل الكهنة في شؤون الدولة السياسية :

غني عن القول ان القوة الاقتصادية والسياسية عنصران متلازمان في حياة البشر لا يفترق الواحد منهما عن الآخر ، بل يلزمه ويحميه ، وعندما يسقط احد العنصرين، يتبعه الآخر حتماً . وينطبق هذا القول على وضع كهنة آمون (المعارضة) والملك اخناتون (السلطة) . فقد أراد كهنة آمون ، وقد امتلكوا القدرة الاقتصادية ، ان يحوموا مصالحهم الاقتصادية هذه عن طريق الهيمنة السياسية . ومن المؤكد ان طائفة الكهنة حاولت التدخل في الشؤون السياسية منذ ايام الملك تحوتمس الرابع (جد اخناتون) ، ولذلك لاحظ الباحثون اتجاه هذا الملك نحو تقوية العبادة الشمسية العريقة في مصر ، والتي كان مركزها في مدينة « ايون » أو « أون » (هليو بولس) في شمال القاهرة الحالية ، وكذلك فعل ابنه الملك امنحوتب الثالث (١٨) .

لقد قامت حرب اقتصادية حقيقية بين الملك والمعارضة ، وقد استخدم الطرفان اشد اسلحتهما مضاعف . لاضعاف الخصم اقتصاديا ، ثم القضاء عليه . فقد ادرك اخناتون ان قوة الكهنة الحقيقية نابعة من قوتهم الاقتصادية . وان النجاح في الحرب يعني امتلاك الاقتصاد الاقوى بالدرجة الاولى . ولذلك حاول منذ بداية هذه الحرب، أن يحطمهم اقتصاديا ، ويقضي على الاسباب التي جعلت منهم قوة اقتصادية . وفيما يلي يلقي الباحث الاضواء على تلك المعارك الاقتصادية :

اولاً : أمر اخناتون بعبادة اله واحد هو الاله آتن ، وحرّم عبادة الاله آمون ، ومحى اسمه أينما وجد ، ولو كان في اسم أبيه . فقد جاء في النشيد لآتن ما يلي :

ما اكثر تعدد اعمالك

انها على الناس خافية

يا ايها الاله الاحد

الذي لا يوجد بجانبه إله آخر
لقد خلقت الارض حسب رغبتك
وحينما كنت وحيدا (لا شيء غيرك) :
خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان (١٩) .

كما قام اخناتون بمصادرة أملاك معبد آمون ، وأمر باغلاق هذا المعبد . وغني
من القول ، ان اخناتون بعمله هذا ، قد أضعف الكهنة اقتصاديا ، حيث منع عنهم
الموارد من النذور ، والقرايين ، وغلل الحقول، و الماشية ومنتجاتها ، والعبيد ،
والذهب الخ (٢٠) .

ثانيا نقل العاصمة : كانت طيبة عاصمة مصر الامبراطورية منذ أيام الدولة
الوسطى (٢٠٥٠ ق م) . وقد بلغت هذه العاصمة الذروة أيام ملوك الاسرة الثامنة
عشرة ، حيث كانت تقصدها الشعوب حاملة الجزية الى الفرعون ، وحيث استقطبت
التجارة العالمية عصرئذ . وبسبب هذا الازدهار السياسي والاقتصادي ، علا شأن
الها آمون . لانه الاله الذي نصر الفرعون ، وهياً الاسباب لنجاح الحملات
التجارية والتعدينية . ومن أجل أن يبتعد اخناتون عن كهنة آمون ومكاندهم ، وليضع
الهمم في الظل ، نقل العاصمة الى موقع العمارنة في مصر الوسطى . وقد اطلق على
عاصمته الجديدة اسم « اخت أتن » اي أفق أتن . وقد يظن البعض ان نقل العاصمة
اجراء ادراي فحسب ، ولكنني استطيع القول ، ان العاصمة كان حربا اقتصادية
قام بها اخناتون لاضعاف كهنة آمون (المعارضة) اقتصاديا ، والقضاء عليهم .
ونتساءل كيف ؟ .

كان المصري القديم يعتقد ، ان الاله هو الذي ينصر الفرعون ، وان النصر
لا يتحقق الا لان الاله راض عن الفرعون ، ولأنه منحه القوة ، وحقق له النصر على
الاعداء . ولذلك على الفرعون الذي يعترف بفضل الاله، ان يقابل الاحسان بالاحسان،
وذلك بأن يخصص جزءا من الفنائم والاسلاب لمعبده . وجزء من ارباح الحملات
التجارية والحملات التعدينية (٢١) .

غني عن القول أن علينا أن نولي اهتمامنا في دراستنا هذه الى آمون وكهنته ،
وتأثير نقل العاصمة الاقتصادي ، لقد بلغت مكانة آمون الذروة ، عندما استطاع ملوك
الاسرة الثامنة عشرة وعلى رأسهم تحوتمس الثالث، تكوين امبراطورية تمتد من الفرات
الى حدود السودان ، ولذلك قصد ممثلو شعوب هذه الامبراطورية العاصمة طيبة ،

وهم يحملون جزاهم السنوية من ذهب ، وفضة ، وعبيد ، وتحف ، لتقديمها للفرعون . كما كانت وفود الدول الصديقة تقصد العاصمة المصرية تحمل الهدايا للفرعون ، عربون مودة وصداقة . وكانت نشوة التدين والاعتزاز ، ومحبة الاله الذي نصر الفرعون ، وجعل هذه الشعوب تأتي طائعة صاغرة الى مصر ، تجعل الفرعون يهب جزءا من هذه الجزى الى معبد كهنة الاله أمون في العاصمة طيبة . وكذلك يفعل الفرعون عندما يوفق في حملاته التعدينية أو التجارية (٢٢) .

اما الان وقد تقلل اخناتون العاصمة الى « آخت آتن » ، فقد صارت وفود الشعوب الخاضعة لمصر ، تذهب الى العاصمة الجديدة . وبذلك أصبحت التبرعات الملكية من الجزى ، والفنائم ، والأرباح التجارية والتعدينية تجد طريقها الى معبد إله اخناتون (الاله آتن) . ومما زاد في خسارة كهنة أمون الاقتصادية ، أن قادة الجيش ، وكبار الضباط ، وكبار الموظفين ، والتجار قد التحقوا بالعاصمة الجديدة الى جانب الفرعون ، وهكذا فإن نذورهم ، وتبرعاتهم نتيجة لنجاح يصيبونه ، أصبحت تذهب الى معبد آتن . يضاف الى ما سبق الانعامات الملكية سواء من الملك أم من افراد أسرته . وهكذا استطاع اخناتون بهذا العمل البارع (تغيير العاصمة) ، أن يحرم المعارضة من اكبر مورد اقتصادي ، تسبب أصلا في نشوء قوتهم .

المظهر الاجتماعي :

لا شك في أن اخناتون كان جبارا ، حين وقف بوجه طائفة الكهنة المنظمة القوية الغنية ، لتكون له الكلمة الاولى في سياسة الدولة الداخلية والخارجية . ومن أجل تحقيق هذا الهدف قام اخناتون بحربه الدينية والإدارية والاقتصادية ضد الكهنة . ولكن لئن حملت خطواته تلك اسباب النجاح ، لكنها حملت في ثناياها أسباب الفشل . وفيما يلي يقدم الباحث دراسة عن انعكاس خطوات اخناتون الجريئة على فئات الشعب المصري من كهنة وعمال وجنود وصناع ومفكرين وغيرهم . والتي كانت سلبية في نتائجها . وقد استغلت المعارضة هذه السلبيات بشكل جيد ، واستخدمتها سلاحا بيدها ، أدى الى سقوط اخناتون .

١ - **الوحدانية واغلاق المعابد والبطالة :** دعا اخناتون الى عبادة اله واحد (الاله آتن) ، ولذلك أمر باغلاق معابد الاله أمون - العدو الرئيسي - ومعابد الالهة الاخرى وكان على رأسهم الاله أوزير (٢٣) . وقد أشار الى هذا الاجراء خليفته الملك « توت عنخ أمون » حيث جاء في نصوصه : « وأغلقت معابد الالهة من الفنتين - عند الشلال الاول - الى مستنقعات الدلتا » (٢٤) وقد نتج عن هذا تسريح الكهنة والموظفين

وكثير من العمال والفنانين الذين كانوا في ادارة وخدمة المعابد ، وبذلك أصبحوا جزءا اساسيا في حزب المعارضة ، خلقوا الكثير من المشاكل للسلطة التي يمثلها الملك اخاتون (٢٥) .

٢ - استراتيجية اخاتون السلمية : حارب الجنود المصريون منذ مطلع القرن

السادس عشر قبل الميلاد في مصر حيث طردوا الهكسوس ، وفي فلسطين وسورية وبلاد النوبة ، وقد حققوا نجاحا عظيما في حروبهم هذه ، اذ أصبحت مصر تسيطر على امبراطورية تمتد من الفرات شمالا الى حدود السودان جنوبا . وقد أفاد الجند من هذه الحروب . حيث الاسلاب والفنائم ، وهبات القادة والملوك تقديرا لشجاعتهم ، أي أن الحرب كانت تعود عليهم بالفوائد المادية والمعنوية ، وكل تغيير يطرأ على استراتيجية مصر القائمة على التفوق العسكري على شعوب المنطقة ، سوف يغضب الجند ويضر بمصالحهم . وقد حدث هذا التغيير فعلا في عهد الملك اخاتون ، الذي اخذ بسياسة مبنية على التسامح والسلام مع شعوب الامبراطورية المصرية (٢٦) وقد نتج عن سياسة اخاتون هذه نيتجتان رئيستان ، الاولى سخط الجنود المصريين الذين أضرروا بسبب انتهاج اخاتون للسياسة السلمية ، حيث حرموا من ترقيةات الملوك والقادة لهم ، كما حرموا من مورد رزق كبير ، بالاضافة انهم حرموا ايضا من تحقيق أمجاد شخصية ، نتيجة لبطولاتهم في ساح المعارك . والنتيجة الثانية ، ضياع الامبراطورية ، اذا كانت المملكة الحثية في آسيا الصغرى ، تتطلع دوما بجشع كبير الى احتلال بلاد الشام ، للسيطرة على أهم الطرق التجارية العالمية (٢٧) . ولم يحل دون تحقيق هدفها إلا المملكة الحورية - الميتانية التي كانت تقوم في الجزيرة السورية الحالية ، وتتخذ من واششوكاني (تل الفخيرية بالقرب من رأس العين الحالية) عاصمة لها ، وتهيمن على شمال سورية حتى المتوسط (٢٨) . وأضيف الى المملكة الحورية - الميتانية الامبراطورية المصرية في بلاد الشام . ولكن باعثلاء اخاتون عرش مصر وقيامه باصلاحه الديني وما نجم عنه من نتائج ذكرناها آنفا ، حانت الفرص لشوبيلوليوما (٢٩) كي يحقق حلم الحثيين . فبدأ بالمملكة الحورية الميتانية حليفة مصر من أيام الملك تحوتمس الرابع ، حيث شن عليها هجوما كبيرا أيام الملك امنحوتب الثالث ، لكنه لم يفلح في هذا الهجوم الذي شنه من جهة الغرب حيث الدفاعات العظيمة لمملكة ميتاني وقد استفاد الملك الحثي من هجومه الاول ، فشن هجومه الثاني في عهد الملك اخاتون - من جهة الشرق ، ونجح في هزيمة الميتانيين ، وقضى على دولتهم ، هذه الدولة التي كانت تجبره دوماً على البقاء خلف جبال طوروس (٣٠) . ولم يقف شوبيلوليوما عند هذا الحد ، بل قام بالغارة على الممالك السورية الحليفة لمصر . وكتبت هذه الممالك الى اخاتون تصف له شراسة الغارات الحثية ، وتطلب المساعدة والنصرة . لكن ما من مجيب . واستمر الحثيون لذلك في توسعهم ، لدرجة ان

النصوص الحثية، تدعي ان نفوذ الحثيين امتد الى جبال لبنان (٢١). ولم تكن الدولة الحثية الطامعة الوحيدة بالامبراطورية المصرية في بلاد الشام . بل وجدت مملكة اخرى في وسط سورية ، هذه المملكة هي المملكة العمورية بزعامة عبيدي عشترا وابنه عزيزو . وبسبب ظروف مصر الداخلية ، استطاعت هذه المملكة ان تسيطر على وسط سورية وتمد نفوذها الى الساحل السوري ، حيث سيطرت على منطقة تمتد من سميرا جنوب طرطوس (ميناء تحوتمس الثالث المفضل) الى مدينة جبيل ، التي كان ملكها رب عدي مخلصا لمصر حتى الموت (٢٢) . وكتب رب عدي وحكام الممالك السورية التي تضررت من الاحتلال العموري الى اخناتون ، حيث أرسلوا عشرات الرسائل يستنصرونه ، ولكن اخناتون لامر ما لم يجبههم الى مطالبهم (٢٣) .

وهكذا نستنتج من دراستنا السابقة ، ان الملك اخناتون اهمل ادارة الامبراطورية المصرية في آسيا ، وانه لم يستخدم الجيش في الحفاظ على هذه الامبراطورية ، على الرغم من استغاثات الحكام السوريين ، مما جعل الجيش ينحاز الى صف المعارضة ، فقائده حورم حب (قائد الجيش في عهد اخناتون) ، كان من أشد المتحمسين للقضاء على ثورة العمارنة وما خلفته من اثار ، بعد وفاة اخناتون .

تعاليم الاتونية وأثرها على الصناعات والفنون :

أصاب الكساد كثيرا من المهن التي كانت مرتبطة بديانة آمون بخاصة والديانات المصرية بعامة ، وذلك بسبب تعارض التعاليم الاتونية مع غيرها من الديانات المصرية القديمة ، وفيما يلي يعرض الباحث لاهم المهن والطقوس المصرية التي ابطلت وأصاب أصحابها العوز ، وبذلك ازداد عدد المعارضين لديانة اخناتون :

١ - النذور : كانت الطقوس الدينية المصرية تقضي وضع نذور من فطائر خاصة خلال ايام الاعياد ، لكن هذه النذور توقفت بحلول ديانة أتون . وبذلك لم يعد الخبازون يصنعون تلك الفطائر ، وحرموا الارباح التي كانوا يجنونها ، وأصابتهم لعنة البطالة (٢٤) .

٢ - التماثيل : لم يعد بمقدور صناعات التماثيل بيع تعاويذهم الالهية القديمة عند ابواب المعابد . أصاب هذا الكساد صناعات الجعارين والتماثيل الصغيرة « أوشابتي » ، فقد كان الكهنة يوصون للناس ، أنه عن طريق تعاويذ هذه الجعارين والأوشابتي يمكن ضمان براءة المتوفى . وبحلول الاتونية أقصيت هذه التعاليم ، وصار الصانع لا ينقشون فوق الجعارين التعاويذ السحرية لآخمداد وحي « الضمير » عند المتهم ،

بل صاروا ينقشون فوقها أدعية بسيطة موجهة الى أتون طلبا للحياة المديدة وللعطف والطعام . وفي هذا الصدد ، علينا ان نذكر صانعي شواهد القبور المزخرفة بالنقوش الزاهية المستوحاة من كتاب الموتى ، فقد استبعدت شواهدهم لأنها أخذت من تراث الديانة المصرية غير الاتونية (٢٥) .

٣ - لفائف البردي المكتوبة : والكتاب أيضا أصابتهم لعنة البطالة ، فقد كان هؤلاء يكتبون على لفائف من البردي النصوص الدينية الطويلة المنقولة من كتاب الموتى ، يصبون اللعنة من خلال كتاباتهم على كل من يسيء الى قبر المتوفى ومحتوياته . وقد ابطلت الان هذه الكتابات ، لأنها ضمت أسماء الالهة المصريين القدامى ، أو أنها كانت تضم كلمة الالهة بصيغة الجمع (٢٦) .

٤ - التمثيليات الدينية : كان كهنة مصر يمثلون أحداثا خاصة بالالهة قبل حلول عهد اخناتون . أما في عهد اخناتون فقد صاروا يطردون من الاماكن المقدسة في مواسم التمثيليات ، نذكر من هذه التمثيليات على سبيل المثال « تمثيلية مأساة أوزير » ، وتمثيلية انتقال الاله آمون من معبد الكرنك الى زوجته الالهة « موت » في معبد الأقصر (٢٧) . ونضيف الى ما سبق طوائف الحجاج الذين كانوا يحجون الى أبيدوس - حيث الاعتقاد يوجد قبر أوزير - ويمثلون هنا « حياة أوزير وموته وبعثه بعد الموت » (٢٨) .

٥ - نحت التماثيل : حرم اخناتون تجسيد الاله أتون بشكل انساني أو حيواني ، كما حرم عبادة الاله أوزير والالهة المصرية . لذلك أصيب نحاتو تماثيل الالهة بضربة موجعة ، وتكدست تماثيلهم في معاملهم دون ان يشتريها احد (٢٩) .

المظاهر الفكرية :

تجلى الحرب الفكرية بين اخناتون والمعارضة في تعاليم دينه ، فالدراس لهذه التعاليم ، يستنتج ، أنها كانت تهدف الى تنزيه الدين الجديد عن كل نقيضه ، والسمو به ليكون رحمة لكل البشر ، والابتعاد عن السحر والشعوذة والدجل ، وبهذا كانت تعاليم الدين الجديد ، تسمو على ما كان قائماً ، وتنزهه عن كل كذب وسحر وشعوذة يمارسها كهنة آمون . وفي كل هذا حرب لا هوادة فيها على ديانة آمون ، وكسب مؤيديه جدد في داخل وخارج مصر . وفيما يلي يورد الباحث مزيداً من مبادئ هذه الديانة ، التي قطعت الطريق على سحر وشعوذة ودجل الكهنة .

أولا التوحيد ؛ سبق وأن قمنا ببحث هذا الموضوع مفصلاً .

ثانيا الماعت (٤٠) ؛ مارس كهنة آمون كثيرا من السحر والشعوذة لضمان براءة المتوفى ، عن طريق وزن قلبه ، والاوشابتي ، والتعاويذ كما سعى الكهنة الى تجديد وتعميق الورع الديني عند الناس عن طريق تمثيل مأساة اوزير ، وانتقال الاله آمون الى معبد الاقصر ، وغير ذلك . كما كانت العقيدة الدينية المصرية تأمر المصريين ، بأن يكون تمثال الشخص خال من المرض والعيوب ، ويجسد صاحبه وهو في شرح الشباب ، لتستطيع الروح التعرف اليه والعودة . لكن تعاليم الديانة الجديدة نسخت كل ما تقدم وأبطلته كما رأينا في التمثيليات والسحر ، وأنكرته في النقش والنحت أيضا ، وقد كان اخناتون مخلصا لهذا المبدأ ، ولو كان الامر يتعلق بالفرعون نفسه، حيث نرى الفرعون وقد رسم برأس غير متناسق ، ورقبة رقيقة ، وشفيتين غليظتين، وبطن متدل ، وافخاذ كبيرة غير متناسقة ، وذراعين رفيفتين أيضا .

ثالثا : الديانة العالمية : ارتفع شأن الاله آمون ، منذ ايام الاسرة الثانية عشرة ، حيث ارتبط اسمه مع اسم مؤسس هذه الاسرة الملك أمنمحات الاول (١٩٩١ ق.م) . وزادت قدسية الاله آمون ، عندما استطاعت طيبة أن تطرد الهكسوس وتكون امبراطورية مترامية الاطراف تمتد من الفرات الى حدود السودان الشمالية ، لأن آمون إله طيبة ، هو الذي حقق كل هذه الانتصارات والانجازات . وكما رأينا سابقا بقي آمون مقدسا الى أيام الملك أمنحوتب الرابع (١٣٦٧ ق.م) . وبذلك يكون قد مر على عبادة آمون قرون طويلة ، تغيرت خلالها ظروف مصر كثيرا . فمنذ تكوين الامبراطورية المصرية (١٤٦٧ ق.م) ، انفتحت مصر على بلاد الشام بخاصة وعلى البلاد المجاورة لها بعمامة ، فأخذت من حضارات هذه البلاد وأعطت ، سواء في مجال اللغة أم الديانة أم التجارة أم الصناعة أم الفن . ووفدت الى مصر جماعات الاسرى بأعداد كبيرة جدا ، جعلت بعضهم يقول أن خلقة المصريين تحسنت نتيجة لذلك (٤١) .

وهكذا نستنتج مما سبق أن أجيالا نشأت في مصر ، قد اطلعت على ثقافات الامم الاخرى ، فأصبحت لها ثقافتها الخاصة ، وأصبحت لها نظريتها الخاصة في معالجة شؤون الحياة . وكان الى جانب هذه الطبقة المستنيرة ، الطبقات الشعبية وعامة الناس وكهنة آمون . هذه الطبقات المحافظة، التي ترى دوما أن صلاح الامة وازدهارها يتحقق عن طريق التمسك بالتقاليد القديمة ، والتمسك بحرفية تعاليم الديانات التي أوصلت مصر الى بناء امبراطورية عظيمة . وقد ساعد واقع مصر هذا الملك اخناتون، الذي كان على رأس الفئة المستنيرة ، والتي كانت على درجة من الثقيف والتعليم (٤٢)، على ابداع ديانة جديدة لا تسود مصر وحدها ، ولكن تسود كافة أرجاء الامبراطورية المصرية . وربما كان هدفه سياسيا ، وهو السيطرة على أرواح شعوب الامبراطورية ، وربطهم ثقافيا وروحيا بمصر ، وبذلك يسهل على مصر ادارة امبراطورتها المرتبطة

روحيا بمصر ، وبمبدعها الروحي اخناتون (٤٣) . وشاهدنا فيما نقول أناشيد اخناتون التي تتضمن توجهها عالميا ، ما وجد في أي عصر من عصور تاريخ مصر .

« ان آتون » خلقهم (لنفسه هو) .

فجميع الاراضي وأهل بحر ايجة يحملون
ضرائبهم وجزيتهم فوق ظهورهم الى الذي
أوجد حياتهم والذي بأشعته تحيا البشر
وتستنشق الهواء (٤٤) .

استطيع أن أضيف الى ما سبق ، ان أناشيد اخناتون لربه يستطيع أن يتغنى بها السوري والنوبي . الخ . حيث ذكرت في هذه الاناشيد الشعوب التي كانت تحت السيطرة المصرية ، كما وان نظرة الكبرياء والتعالي ، التي كان ينظر بها المصريون نحو تلك الشعوب أصبحت كأنها لم تكن (٤٥) . فالناس كلهم أبناء الله ، هو الذي خلق ألوانهم ولغاتهم ، ووضعهم في أقاليمهم المختلفة ، والله رحيم بهم جميعا يعطيهم حسب ظروفهم الاقليمية ، فهو يخلق لمصر نيلا في الارض ، ولكنه يخلق لاهل الشام نيلا في السماء :

ما أكثر تعدد أعمالك
انها على الناس خافية
يا أيها الاله الأحد
الذي لا يوجد بجانبه اله آخر
لقد خلقت الارض حسب رغبتك
وحينما كنت وحيداً (لا شيء غيرك)
خلقت الناس وجميع الماشية والفلان
وجميع ما على الارض
مما يمشي على رجليه
وما في عليين مما يطير بأجنحته
وفي الاقطار العالمية سورية
وكوش وأرض مصر
فانك تضع كل انسان في موضعه

وتمدهم بحاجاتهم
وكل انسان لديه قوته
وايامه معدودات
والالسنه في الكلام مختلفه
وكذلك تختلف اشكالهم وجلودهم
لأنك تخلق الاجانب مختلفين .
أنت تخلق النيل في العالم السفلي
وأنت تأتي به كما تشاء
ليحفظ أهل مصر احياء
لأنك خلقتهم لنفسك
وأنت سيدهم جميعاً
وأنت الذي تنهك نفسك من أجلهم
وأنت رب كل قطر
وأنت الذي تشرق من أجلهم
وأنت شمس النهار عظيم الافتخار
وجميع الاقطار العالمية القاصية
أنت تخلق حياتها أيضاً
لقد وضعت نيلاً في السماء
وحينما ينزل لهم يصنع أمواجاً فوق الجبال
مثل (أمواج) البحر
فيروي حقولهم في قراهم .
ما أكرم مقاصدك يا رب الابدية
ويوجد نيل في السماء للاجانب
ولأجل غزلان كل الهضاب التي تتجول على اقدامها
أما النيل فانه يأتي من العالم السفلي لمصر (٤٦) .

وهكذا كما رأينا ، فان حماية ورحمة ورعاية الاله المصري ، لم تعد مقتصرة على مصر فقط ، بل امتدت لتشمل سورية ومصر وكوش والنوبة والصحراء والعالم كله . ولم تعد مهمة الاله قهر الشعوب غير المصرية لصالح الفرعون المصري ، وربط تلك الشعوب الى مركبة الفرعون لتجرها وراءها بشكل مهين ، بل صار الاله ينزل لها نبلا من السماء ليروي حقولها في قراها ، ويجعلها تعيش في سعادة ورخاء . باختصار ان الاله اتون أصبح إلهاً للجميع لا يفضل شعبا على شعب . ولا يختار شعبا ويخصه برحمته ورضاه ، وفي هذا سبق حضاري وانساني يرجع الى حوالي ١٣٦٧ ق.م أي قبل حوالي ثلاثة آلاف وثلاثمائة وواحد وستين عاما . وهنا يكمن سر عظمة أخناتون .

موقف المعارضة من عالمية أخناتون :

من المؤكد ان المعارضة ، وقفت ضد هذا الاتجاه (عالمية دين أخناتون) . طالما ان التعاليم السامية لهذا الدين ، سوف تؤدي الى نجاحه وانتشاره في مصر وكافة اقطار الامبراطورية المصرية . وهذا يعني القضاء على ديانة آمون الى الابد .

ايام أخناتون الاخيرة :

واجهت دعوة أخناتون صعوبات جمة في انتشارها ، حيث كان كهنة آمون (المعارضة) وراء هذه الصعوبات . وما أن وافت السنة الثانية عشرة من حكم أخناتون حتى ساءت احوال مصر الداخلية والخارجية ، لارتباط الواحد منهما بالآخر ارتباطا وثيقا . ففي الداخل تفرقت الامة الى شيع واحزاب متناحرة ، وقد كرس أخناتون كل اهتمامه لهذا الصراع ، ولم يول الامبراطورية في سورية أي اهتمام ، مما شجع الحثيين والعموريين على اقتسام النفوذ المصري في سورية ، حيث نتج عن هذا الاقتسام انقطاع جزي الممالك الشامية عن مصر ، وانقطاع تجارة مصر مع بلاد الشام، وهكذا أصبحت مصر تعاني من الضعف السياسي والاقتصادي .

احست الملكة « تي » أم أخناتون بوضع ابنها ووضع البلاد الذي لا يسر صديق، وادركت المصير السيئ الذي ينتظر ابنها والبلاد المصرية ، فزارته في عاصمته في عام حكمه الثاني عشر . وبسطة أمامه أمور البلاد الداخلية والخارجية ، وطلبت منه أن يهادن كهنة آمون .

فتحت هذه الزيارة عيني الملك على حقيقة حال البلاد المصرية والامبراطورية المصرية . وتدل تصرفات أخناتون بعد هذه الزيارة ، أنه اقتنع بآراء أمه ، فسعى الى التخفيف من غلواء دعوته تجاه كهنة آمون . بل والى الصلح معهم . ولذلك أرسل

شريكة في الحكم سمنخ كارع زوج ابنته الكبرى الى طيبة ليجس نبض كهنة امون ، وليجد أفكارا تصلح لان تكون أساسا للصلح . لكن قرأتين الاحوال تدل على أن المعارضة ، أدركت ان وضع اخناتون أصبح ضعيفا في الداخل والخارج . ولذلك لم يقبل كهنة امون بأقل من اجتثاث جذور الثورة الاتونية . وقد ساعدهم القدر على هذا ، وكان لهم ما أرادوا . فاختاتون ملهم هذه الثورة وسمنخ كارع شريكه في الحكم توفيا . وصعد الى سدة الحكم في « آخت أتن » « توت عنخ أتن » زوج ابنة اخناتون الثانية (غنخى - ان - با - أتن) . وقد قبلت المعارضة بهذا الطفل ملكا على مصر ، لانه سيكون العوبة بأيدي كهنة امون . فلا الخبرة متوفرة ، ولا الإرادة حرة ، ولا القوة لديه موجودة . والادلة على هذا كثيرة ، نشير الى بعضها على سبيل المثال ، لقد أجبر الملك بعد فتر وجيزة على هجر العمارنة والعودة الى طيبة ، يضاف الى هذا ان الملك غير اسمه من توت عنخ أتن الى توت عنخ امون ، وفي هذا اعلان رسمي عن عودة الديانة الامونية لتكون ديانة الملك الرسمية . وبهذا تكون ثورة العمارنة قد وصلت الى النهاية . وأستطاعت المعارضة (الكهنة) أن تقضي عليها القضاء المبرم . وتعود ديانة امون الى مكانتها المميزة ، ونفوذها في المجتمع المصري القديم (٤٧) .

وهكذا فشل حكم اخناتون ، وفشلت معه ديانته الاتونية . ومن دراستنا السابقة يتضح لنا بجلاء ان أسباب هذا الفشل يعود الى ثلاثة محاور رئيسة . المحور الاول يتضمن مقاومة كهنة امون وأنصارهم من كهنة الآلهة الاخرى . والمحور الثاني يتضمن النتائج التي نتجت عن اجراءات اخناتون ، حيث أصبح الجيش غير راض عن سياسة اخناتون السلمية . وزاد عدد العاطلين نتيجة لاجلاق المعابد . وانقطعت التجارة المصرية مع غيرها من البلدان المجاورة ، كما انقطعت عن مصر جزى الشعوب التي كانت خاضعة لمصر ، مما زاد في ضعف مصر الاقتصادي . اما المحور الثالث فيتضمن تعليم الديانة الاتونية نفسها . فقد كانت تعاليم محصورة بشخص الملك ، الذي يتلقى التعاليم من الاله أتن ، وعنه يأخذ البشر ، وبذلك لم تصل هذه الديانة الى قلوب المصريين ، ولم يعايشوها . فقد جاء في النشيد لاتن ما يلي :

ليس هناك واحد آخر يعرفك إلا ابنك اخناتون

لقد جعلته عليمًا بمقاصدك وبقوتك .

يضاف الى ما سبق أن الديانة الاتونية كانت ديانة غير شعبية - كما بينا سابقا- فمبدع هذه الديانة كان ملكا ينتمي الى أعلى الطبقات المثقفة المتعلمة ، ولم يكن من الفقراء الضعاف الاقرب الى الطبقات الشعبية العريضة . كما ان الديانة كانت ديانة أكثر تجريدا مما سبقها من الديانة المصرية ، التي عاشت في ضمير ووجدان المصري

لمئات عديدة من السنين ، والذي تعود على عبادة الهة متجسدة بشكل حيواني أو انساني . وشدته عاطفته الدينية الى موروثه الايماني ، ومنعته من ان يرقى بفكره الى ادراك الافكار الوجدانية المجردة . ولذلك كان من الصعب على المصري ، ان يترك العادات والتقاليد والايمان الموروث بمدة وجيزة لا تتجاوز مدة حكم اخناتون (١٧ سنة) ، بل ربما أحس المصري القديم بشيء من تأنيب الضمير ، عندما كان يرى معابده المقدسة وقد أصابها الخراب والاهمال والعبث وأوصدت أبوابها . وربما كان ينظر الى اماكن الاحتفالات الدينية فيجدها صامتة لا حركة فيها - كما مر معنا سابقا - فتملأ الحسرة قلبه . ومن المؤكد أن الآلهة كانت أثيرة لدى الشعب المصري وخاصة الاله اوزير ، الذي كان مسؤولا عن سعادة المتوفى في الحياة الآخرة ، حيث كان المحامي عن الاموات أمام كل خطر ، أصبح منفيًا من مصر ، ولا يستطيع انسان ان يذكر اسمه في عهد الملك اخناتون ، نتيجة لكل ما ذكرنا ، ابتعد الانسان المصري عن اخناتون وعن ديانته ، وأدى هذا الابتعاد الى فشل الديانة الاتونية .

المعارضة في السلطة :

عادت المعارضة الى سابق عهدها بعد فشل ثورة العمارنة . واحتلت مكانتها المميزة في المجتمع المصري القديم ، وتمتعت بكل الامتيازات السابقة (٤٩) . وقد واجهت المعارضة مشكلتين رئيسيتين ، الاولى اعادة ترتيب البيت المصري من الداخل ، والقضاء على كل ما خلفته ثورة العمارنة من آثار . والثانية اعادة الامبراطورية المصرية الضائعة في بلاد الشام ولو جزئيا .

أما فيما يتعلق بالمشكلة الاولى (ترتيب البيت المصري من الداخل) ، فقد بذلت المعارضة جهودا جبارة للتشهير بأختاتون ، فنسبت اليه كل مظاهر الضعف والخراب التي سادت مصر . فقد جاء في نص يعود الى عهد الملك توت عنخ آمون ما يلي :

« انه الحاكم الطيب (٤٩)

الذي قام بأعمال عظيمة لوالد كل الآلهة (٥٠)

والذي أصلح كل ما كان مخربا حتى صار آثارا خالدة

ومحيت من أجله الخطيئة في الارضين (مصر) وبذلك دامت العدالة وجعل الظلم شيئا تمقته البلاد كما كان الحال في البداية (٥١) .

لم تكتف المعارضة بالتشهير بأختاتون ، ووصمه بالكذب والدنس ، بل سعت

جاهزة لان تحرمة الراحة الابدية ، وذلك عن طريق عدم ذكر اسمه ضمن اسماءملوك مصر الفابين (القوائم الملكية) ، التي كانت تسجل على الاثار ، كحجرة الاجداد في معبد الكرنك من عهد تحوتمس الثالث وغيرها . وعندما كانت الاشارة الى اسمه ضرورية في الوثائق الرسمية في عهد الفراعنة الذين اتوا بعده كان يسمى « مجرم اختياتون » . ولابراز مدى حقد الكهنة على اختاتون نورد القصيدة التالية :

انك تصل الى من يبقي عليك
والويل لمن يهاجمك
مدينتك تبقى
ولكن من يهاجمك يهوي
وشمس من لا يعرفك تفيب . . يا امون !
واما من يعرفك فانه يضيء
ومعبد من هاجمك في ظلمه
بينما جميع الارض في نور(٥٢)

واخيرا حاولت المعارض ان تنحي باللائحة على اختاتون في سقوط الامبراطورية المصرية في بلاد الشام « واذا ارسل قوم الى سورية لمد حدود مصر لم يكن الفوز حليفهم قط »(٥٢) . ولكن مهما ربطت المعارض بين اختاتون وضياع الامبراطورية المصرية في بلاد الشام فان هذه الادعاءات تبقى للدعاية ضد اختاتون . قام بها اعداء اختاتون انفسهم ، فقد قامت امبراطوريات في التاريخ مثل الامبراطورية الاكدية ، والبابلية ، والميتانية ، والحثية ، والكاشية ، والاشورية ، والكلدانية ، والفارسية والرومانية ، الاسلامية ، والبريطانية ، وسقطت كلها دون ان يظهر فيها اختاتون واحد . انها سنة الحياة ، طفولة وشباب وكهولة وسقوط .

اما فيما يتعلق بمحاولة اعادة الامبراطورية الضائعة في بلاد الشام(٥٤) ، فقد أدركت المعارضة ، غف الهزة التي اصاب مصر ، جراء ثورة اختاتون الدينية ، كما أدركت مدى التغيير الدولي الكبير ، فقد بلغت الدولة الحثية ذروة مجدها ، وأقصى توسع لها في بلاد الشام . ولذلك أثر قائد الجيش حورم حب ، الرجل الذي كانت له السلطة الفعلية في مصر ، الاهتمام بشؤون مصر الداخلية قبل السعي لاعادة الامبراطورية ، فسن التشريع ، الذي نظم الادارة والقضاء وشؤون الجيش (٥٥) .

وهكذا فقد ملأ اختاتون الدنيا وشغل الناس ، لا في القديم فحسب ، بل في عالمنا

الحديث أيضا ، فقد كان اخناتون فيلسوفا ملتصقا ومفكرا مبدعا ، هدته ثقافته وفلسفته الى ابداع فكر عظيم . لقد كان فكر اخناتون ظاهرة مبكرة جدا في تاريخ الفكر الانساني ، أساسه الوجدانية ، والسلام بين الشعوب ، والصدق في سلوك البشر ، وحب الطبيعة ، وحب الانسان ، لقد كانت النزعة الانسانية في فكر اخناتون مميزة وواضحة ، فرحمة الله - حسب دينه - لا تخص شعبا بعينه ، او ان الله يختار قوما ليخصهم بامتيازات على سائر البشر ، جاء كل هذا منذ ثلاثة الاف وثلاثمائة سنة . لكل ما سبق سيبقى اخناتون وفكره في ذاكرة البشرية ، ما دامت الحياة ، تكبره وتعجب به الاجيال .

المراجع :

- ١ - أحمد فخري ، مصر الفرعونية ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- ٢ - ارمان ، ديانة مصر القديمة ، ترجمة عبد المنعم ابو بكر ، القاهرة .
- ٣ - برستد ، فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن ، القاهرة ١٩٥٩ .
- ٤ - جاردنر ، مصر الفراعنة ، ترجمة نجيب ميخائيل ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٣ .
- ٥ - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، حضارة مصر الفرعونية ، الجزء الاول ، ١٩٧٨ .
- ٦ - محمد أنور شكري ، العمارة في مصر القديمة ، القاهرة .
- ٧ - محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات السورية المصرية عبر التاريخ ، الجزء الاول ، دمشق ١٩٨٥ .
- ٨ - ويلسون ، الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخري ، القاهرة ١٩٥٥ .
- ٩ - الموسوعة المصرية ، نخبة من الاساتذة .
- ١٠ - Baeasted, H., Ancient Records of Egypt , Chicago 1906 .
- ١١ - Gardiner, A., Egyptian Grammar, London 1959.
- ١٢ - Geotze, A., Shoppiliumash Destroys the Kingdom of Mitanni , A. N. E. T.
- ١٣ - Wihson, J., Yut - ankh - amon- Restoration after the amarna Revolu tion, A. N. E. T.

الحواشي :

توجه أخناتون نحو الاله أن خطرا يهدد مصالحهم الاقتصادية ، ويقضي على نفوذهم .
— عبد المنعم عبد الحليم سيد ، حضارة مصر الفرعونية ، ج ١ ، الاسكندرية ١٩٧٨ ، ص ١٩٢ .

برستد ، فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٢٩٩ .

عبد موظفو الملك الى الارشيف الملكي ، فمحو اسم أمون . وكذلك عمدوا الى محو أسماء سائر الالهة الأخرى .

— محمود عبد المجيد ، سلسلة العلاقات ، ص ١٧٤ .

— برستد ، فجر الضمير ، مرجع سابق ، ص ٣٠٠ .

كان أمون اله الهواء ، وكان يعني اسمه « الخفي » وهو في هذا عكس أن الاله الذي يتجلى للناس يوميا وبوضوح تام .

ويلسون ، الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخري ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ١٦٢ .

— Gardiner , A., Egyptian Grammar, London, 1959, p. 625.

الموسوعة المصرية ، نخبة من الباحثين ، الصورة ٣١٨ .

سمى امنحوتب الثالث الزورق الذي كان يستخدمه في النزهة مع الملكة في بحيرة قصره بطيبة « اتون يشع » . وبناء على كل ما سبق يرى بعض الباحثين أن نوعا من التعبد كان يقام لأن في طيبة فعلا ، انظر : .

— جارونر ، مصر الفرعنة ، ترجمة نجيب ميخائيل ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

Breasted, J. H., Ancient Records of Egypt- Chicago, 1906 . (١)

حارب احمس الاول في فلسطين ، كما حارب تحوتمس الاول في بلاد الشام ووصل الى الفرات (منطقة نهارين) . كما حارب الملك (٢)

تحوتمس الثالث في بلاد الشام حيث شن عليها سبع عشرة حملة عسكرية ، وقد كانت جيوشهم برية . — محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات السوية المصرية عبر التاريخ ، الجزء الاول ، دمشق ١٩٨٥ ، ص ٤١-٨٦ . (٧)

حصل هذا في أواخر أيام الملك امنحوتب III (٨)

للاطلاع على أحوال مصر القديمة قبل اخناتون انظر : محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات السورية المصرية عبر التاريخ ، الجزء الاول ، دمشق ١٩٨٥ ، وسيشار اليه فيما بعد هكذا ، محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات . (٩)

تحوتمس الثالث (١٤٦٨ - ١٤٤٧ ق.م.) من أعظم فراغة الأسرة الثامنة عشرة ، حيث يعد مؤسس الامبراطورية المصرية في بلاد الشام . انظر : (٥)

محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات ، (مرجع سابق) ، ص ٦٩-١٠١ .

يرى بعض الباحثين أن اخناتون لم يبدأ (٦)

العداوة ضد كهنة أمون ، بدليل انه أعلن اثر اعتلائه العرش ، أن الاله أن ما هو الا « رع حور أختي » (اله الشمس) الذي يتجلى في الانق باعتماده النور الذي في الكوكب أن . وبهذا قدم اخناتون الاله أن على أنه اله شمسي ربط الى اله شمسي آخر عظيم ، وهذا شائع في الديانة المصرية مثل (أمون - رع) . لكن الكهنة وقد أحسوا بتوجيه ملوك هذه الأسرة الى العبادة الشمسية ، بمحاولتهم تمجيد أنس رأوا في (١٠)

(١١)

— برستد ، فجر الضمير (مرجع سابق) ،
ص ٣٣٠ .

من أجل حصول الكهنة على حصتهم من
الاسلاب والفنائم ، كان يرافق الجيش المصري
في غزواته كاتب — كان في أغلب الاحيان كاهن
تسميه النصوص S^sms^c (كاتب
الجيش) . وكانت مهمة هذا الكاتب تسجيل
الاسلاب والفنائم ، ولذلك لاحظ الباحثون أن
هذا الكاتب ، كان يهتم بتسجيل الاسلاب
والفنائم أكثر مما يهتم بأحداث المعركة .

عندما شاهدت الملكة حتشبوت أرباح حملتها
التجارية الى بونت ، تبرعت فورا بجزء منها
الى الاله آمون . انظر :

— Breasted J., Ancient Records
of Egypt. Vol II, Chicago, pp270 ff.

التي اخناتون عبادة الاله اوزير ، وكان لهذا
الالهاء اثر سلبي بعيد المدى في نفوس
الطبقات الشعبية المصرية بخاصة . وذلك
بسبب المكانة العظيمة التي يحتلها هذا الاله
في نفوس الناس كاله شعبي وكاله رمز
لعقيدة المصريين في حياتهم الدنيا ، وفي بعثهم
بعد الموت . وقد غزت عقيدة اوزير نفوس
المصريين منذ اواخر الاسرة الخامسة ، حيث
جعلت هذه العقيدة نصيبا للطبقات
الشعبية بنعيم الخلد في دولة اوزير رب
الابدية ، بل اعتقد المصريون في عصر الدولة
الوسطى ، ان كل متوفٍ سيصبح اوزير
في الحياة الآخرة — وهنا سوف يتمتع الجميع
بنعيم الحياة لا فرق بين غني وفقير أو بين
حاكم ومحكوم ، وكان اوزير على رأس اثنين
وأربعين الها يحكمون المتوفي في قاعة كبيرة .

— الموسوعة المصرية ، (مرجع سابق) ،
ص ١٢٩ — ١٣٠ — ٣٦١ — ٣٦٢ . عبد المنعم
عبد الحليم سيد ، حضارة مصر الفرعونية ،
(مرجع سابق) ، ص ١٣٧ — ١٤٦ ، ١٩٣ .

برستد ، فجر الضمير ، مرجع سابق ، ص ٣٣٠ .

— أحمد فخري ، مصر الفرعونية ، القاهرة ،
١٩٧١ ، ص ٢٠٧ .

(١٢) ارمان ، ديانة مصر القديمة ، ترجمة عبد
المنعم ابو بكر ، القاهرة ، ص ٢٠٨ — ٢١٦
٢٢٥ — ٢٢٦ .

(١٣) كان قضاة مصر على الاغلب من الكهان ،
وكانت الدعاوى تحفظ وتعد مع مكان حفظها
من المقدسات .

(١٤) ان نقل العاصمة يدخل ايضا ضمن اجراءات
الحرب الاقتصادية التي شنها اخناتون على
كهنة آمون — كما سنرى .

(١٥) محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات
(مرجع سابق) ، ص ٤٥ .

(١٦) أطلق جنود تحتمس على نهر الفرات اسم
« النهر ذي المياه المقدسة » وذلك قياسا على
اتجاه مجرى النيل .

— B. A. R., vol, II

(١٧) فيما يتعلق بحروب ملوك مصر . انظر :
محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات ،
ص ٤١ — ١١٥ .

(١٨) انظر المظاهر الدينية في هذا البحث .

(١٩) برستد ، فجر الضمير (مرجع سابق) ،
ص ٣٠٤ .

(٢٠) جاء في نص مصري يعود الى عهد « تون عنخ
أمون » (الملك الذي حكم مصر بعد اخناتون
وارتد عن الاتونية) ، وصف لحالة المعابد
في عهد اخناتون كما يلي : « وأغلقت معابد
الالهة من — الفنتين » (أي الشلال الاول)
الى الدلتا ...

وهجرت أماكنهم المقدسة ، ونبت فوق دمنها
المرعى . وصارت معابدهم كأن لم تكن بالامس
وبيوتهم صارت طرقا معبدة ، والبلاد كانت
في مأزق سيء . وأما الالهة فقد هجرت هذه
الارض .

Goetze, A., Shoppilumash Destroys The Kingdom of Mitanni, A. N. E. T, P. 318 .

(٣٠) محمود عبد الحميد احمد ، سلسلة العلاقات (مرجع سابق) ، ص ١٦٢-١٦٣ .

(٣١) تقع جبيل على الساحل السوري الى الشمال من بيروت الحالية ، وتمتد من أهم الموانئ الفينيقية التي كان لها صلات تجارية كبيرة مع مصر منذ عصور مبكرة جدا .

(٣٢) أما سميرا « Symura » فتقع على الساحل السوري أيضا الى الجنوب من مدينة طرطوس الحالية ، ربما تل الكزل الحالي .

(٣٣) محمود عبد الحميد احمد ، سلسلة العلاقات ، (مرجع سابق) ، ص ١٦٤ - ١٧٠ .

— استطاع عزيرو أن يسيطر على بيروت بعد جبيل وبذلك امتد حكمه على الساحل من سميرا الى بيروت .

(٣٤) تماثيل الاوشابني ، تماثيل صغيرة ، توضع مع الميت في غرفة دفنه ، كانت تقوم باجابة الالهة بدلا من الميت عندما يتطلب الموقف ، وتسميتها قريبة من المصدر العربي «اجابة» . — برستد ، فجر الضمير ، (مرجع سابق) ص ٣٣٠ .

(٣٥) برستد ، فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٣٢٨ .

— برستد ، فجر الضمير ، (مرجع سابق) ، ص ٣٣٠ .

(٣٦) برستد ، فجر الضمير ، (مرجع سابق) ، ص ٣٣٠ .
(٣٧) محمد أنور شكري ، العمارة في مصر القديمة ، القاهرة ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٣٨) احمد فخري وآخرون ، الموسوعة المصرية ، المجلد الاول ، الجزء الاول ، القاهرة ص ٧٧ - ٧٨ .

(٣٩) برستد ، فجر الضمير ، (مرجع سابق) ، ص ٣٣٠ .

(٢٥) ويلسون ، الحضارة المصرية (مرجع سابق) ، ص ٣٢٢ .

(٢٦) ربما كانت هذه السياسة نابعة من ثقافة وطبع وفلسفة اخناتون الدينية ، فقد جاء في رسالة بعث بها الى عزيرو الزعيم العموري ما يلي : « انت تعرف أنني أكره الحرب ولا أريد ان اذهب لاقتل الناس في آسيا » . أو ربما بسبب حربه مع المعارضة ، هذه الحرب التي فرقت الامة الى حزينين كبيرين (حزب الملك ، وحزب الكهنة) ، أو ربما بسبب تفضيل اخناتون من قبل حاشيته ، اذ يعتقد ان هذه لم تكن مخلصة لخناتون ، وبالتالي فلم تطلعه على حقيقة الوضع في سورية بشكل خاص .

— محمود عبد الحميد احمد ، سلسلة العلاقات . (مرجع سابق) .

(٢٧) الحثيون من الشعوب الهندو - اوربية . هاجروا الى اسيا الصغرى في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد وتغلبوا على الشعب الذي سبقهم اليها واحتلوا عاصمتها خاتي في منعطف نهر الهالس الذي يصب في البحر الاسود ونسبوا اليها . — محمود عبد الحميد ، سلسلة العلاقات ، (مرجع سابق) ، ص ١٣٠ - ١٣٣ .

(٢٨) الشعب الحوري - الميثاني ، شعب هندو - أوربي ، وصل الى منطقة الجزيرة السورية في مطلع الالف الثانية قبل الميلاد ، حيث أسس دولته ، واتخذ من واششوكاني (تل الفخيرية بالقرب من راس العين الحالية) عاصمة له .

— محمود عبد الحميد احمد ، سلسلة العلاقات (مرجع سابق) ، ص ١٢٣-١٢٧ .

(٢٩) يمد شوبيلولوما Suppilumash من أعظم ملوك الإمبراطورية الحثية الحديثة . وقد امتدت فترة حكمه من حوالي ١٣٩٠ ق م الى ١٣٥٤ ق م .

— Pritchard, A.N.E.T., P. XVIII .

— محمود عبد الحميد أحمد (المراجع السابق)
ص ١٧٦ .

(٤٨) تكونت المعارضة ضد اخناتون من كهنة آمون والجيش ، والعاظمين عن العمل ، وكانت السلطة محور الصراع . وعلى الرغم من عنف معارضة كهنة آمون لثورة العمارنة ، فقد استطاعت المعارضة العسكرية الوصول الى الحكم قبل الكهنة ، — كما رأينا — اذ كان قائد الجيش حورم حب حاكم مصر الفعلي بعد اخناتون ، الى أن أصبح ملك مصر رسمياً . لكن المعارضة الكهنوتية لم تفقد الأمل واستمرت تسعى الى الحكم سعيًا حثيثًا ، الى أن وصلت الى عرش مصر حوالى ١٠٨٧ ق.م ، حيث تولى الكاهن حريحور الحكم ، وبذلك عد مؤسسًا للأسرة الحادية والعشرين .

(٤٩) « تحوت عنز آمون » .

(٥٠) الآله آمون .

(٥١) برستد ، فجر الضمير ، (مراجع سابق) ص ٣٣١ .
ص ٣٣١ .

(٥٢) القصيدة تخاطب آمون وتتشفي من اخناتون والله ومعبده ، (برستد المرجع السابق ص ٣٣١) .

(٥٣) برستد ، فجر الضمير (مرجع سابق) ،
ص ٣٣٠ . (النص من عهد الملك توت عنخ

(٥٤) تعد بلاد الشام مقدمة لمصر ، كما تعد مصر عمقًا لبلاد الشام ، وكل حدث عظيم يقع في أحدهما ، فإن آثاره تنعكس على البلد الآخر . وقد أدرك المصريون هذه الحقيقة ، لذلك وجدنا المعارضة في أول أيام توت عنخ آمون خليفة اخناتون ، تسعى الى انقاز ما يمكن انقازه من بلاد الشام ، فبعثت حورم حب قائد الجيش الى فلسطين الحالية وقد حقق بعض النجاح هناك .

(٥٥) أحمد فخري ، مصر الفرعونية ، (مرجع سابق) ، ص ٢٢٦ - ٢٢٨ .

(٤٠) الماعت في اللغة المصرية القديمة تعني الصدق او الحقيقة

— Gardiner , op. eil , P. 567 .

(٤١) محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات (مرجع سابق) ، ص ١٩٧-٢١٣ .

(٤٢) يرى بعض الباحثين ان اخناتون كان فيلسوفًا ملهمًا ، وقد هدته ثقافته السلي ابداع ديانته . وهكذا فان هذا الابداع لم يكن وحيا الهياً ينزل على الفقراء الضعفاء كما في الديانات السماوية بل هو اجتهاد بشري ، لا يبدعه الا من كان مثقفًا ومتعلمًا .

(٤٣) يقول برستد أن اخناتون اسس في النوبة مدينة لاتون مشابهة لـ « آخت آتن » في موقع العمارنة بمصر ، ومن المحتمل جدًا ، أنه أقام مدينة أخرى لذلك الآله في اسيا ، وبذلك صار لكل من الثلاثة الاجزاء العظيمة التي تتألف منها الدولة وهي مصر وسورية والنوبة مقر للذهب « آتون » .

— برستد ، فجر الضمير ، (مراجع سابق) ص ٣٠٠ .

(٤٤) برستد ، فجر الضمير (مرجع سابق) ،
ص ٣١٢ .

أي الناس ، البشر .

(٤٥) اطلق المصريون على انفسهم تسمية « rmt »
— Gardiner, A. . Op. cit, P.578.

(٤٦) برستد ، فجر الضمير (مرجع سابق) ،
ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

— أحمد فخري ، مصر الفرعونية (مرجع سابق) ، ص ٢١٣ .

(٤٧) محمود عبد الحميد أحمد ، سلسلة العلاقات (مرجع سابق) ص ١٧٦ .

— من فحص مومياء الملك توت عنخ آمون تبين انه في التاسعة من عمره حين تسلم عرش مصر القديم .